كتب الفراشة - حكايات شعبيّة



أبُو الحِنّ



ما هي هٰذه «الحِكايات الشَّعْبِيَّة»؟

إنَّها لَمَحات مِنَ الماضي وصُوَر مِن التُّراث بأساطيره وتَقاليده وعاداته، نَسيناها أو كِدْنا نَنسى مُعظَمها، يُعيد إحياءَها الأديب إميل يوسف عوّاد بقَلَمه الصّادِق الشَّفّاف.

مَع هٰذه الحِكايات، يَعود أبناء الجِيل الجَديد إلى جُذورهم الّتي هُمْ عنها غافِلون، فما يَنطبِق على قَرية يَنطبِق على كُلّ القُرى، وما يَحْدث لِفَرْد قد يَحْدث مَثيلُه لباقي أفراد المُجتمَع.

إنَّها دَعوة لِلرُّجوع إلى الضَّمير والسَّيْر في طَريق الإيمان بِالله ومَحبَّة الإنْسان لِأخيه الإنْسان والارْتِباط بِالطَّبيعة والأَرْض والوَطَن، مِن أَجْل حَياة هانِئة وادِعة بَريئة.

كُلّ ذٰلك بأُسلوب رَشيق جَذّاب هو أبْعَد ما يَكون عن الوَعْظ المُباشِر والعِبارات الطَّنّانة.

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة

أبو الحِنّ



إميل يوسف عوّاد



مكتبة لبنان ناشرون



لي مِنْ طُفولَتي، كَكُلِّ النّاسِ، ذِكْرَياتٌ أُحِبُّ أَنْ أَعودَ إِلَيْها مِنْ حينٍ إلى حِينٍ جامِعًا شَتاتَها، مُفَتِّشًا عَنْ مَعالِمِها في كُلِّ مَطْرَحٍ مِنَ البَيْتِ والقَرْيَةِ، مُتَمَتِّعًا بِكُلِّ حَرَكَةٍ وكَلِمَةٍ مِنْ حَرَكاتي وكَلِماتي في ذٰلِكَ العَهْدِ. والغَريبُ أَنّني كُلَّما جِئْتُ أَسْتَعْرِضُ ما تَبَقّى في ذِهْني مِنْها أَجِدُني لا أَرى إِلّا ما هُوَ قَبيحٌ.. وأَمّا ما هُوَ حَسَنٌ فَأَكادُ لا أَعي شَيْئًا مِنْهُ.

ولَسْتُ أَدْري ما الذي يُعْجِبُ ابْنَةَ أَخي سامِيَةَ في حِكايَةِ «أَبو الجِنّ» وهي ذِكْرى مِنْ ذِكْرَياتِ طُفولَتي رَدَّدْتُها عَلى مَسْمَعِها مِرارًا. في كُلِّ مَرَّةٍ تَلْقاني تَرْكُضُ إلى حِضْني وتَشُدُّني مِنْ أُذُنَيَّ شَدًّا قائِلَةً: إحْكِ لي حِكايَةَ «أَبو الجِنّ». وما تَفْتَأُ عَلى إلْحاحِها حَتّى أَحْكِيَ:



– كُنْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ غارِقًا في حُلْمٍ جَميلٍ طالَما حَلَمْتُ بِهِ ووَدِدْتُ لَوْ يَتَحَقَّقُ. حَلَمْتُ أَنَّني في غابَةٍ فَسيحَةٍ، مُنْبَسِطَةِ الأَرْجاءِ تَتمايَلُ فيها الأَشْجارُ وتَتَدَفَّقُ الأَنْهارُ. غابَةٌ لَمْ تَقَعْ عَيْني عَلى مِثْلِها قَطٌّ، فَالطُّيورُ فيها جَماعاتٌ والأَرانِبُ والغِزْلانُ وغَيْرُها مِنَ الحَيَواناتِ زَرافاتٌ زَرافاتٌ. مِنْها ما يَتَلَهَّى عَلى ضِفافِ المِياهِ ومِنْها ما يَتَقَبَّلُ شَمْسَ النَّهارِ عَلى رُؤوسِ الصُّخورِ. وكُلُّ ما في الغابَةِ مُلَوَّنٌ ضَحوكٌ، حَتّى الماءُ والتُّرابُ والحِجارَةُ. أَمّا أَيْنَ هِيَ هٰذِهِ الغابَةُ وكَيْفَ جِئْتُ إِلَيْها، فَهٰذا ما أَجْهَلُهُ.





إنَّ كُلَّ ما كُنْتُ أَعْرِفُهُ أَنَّني في الغابَةِ وفي يَدي بُنْدُقِيَّةُ والِدي أَرْكُضُ وأُطْلِقُ الرَّصاصَ، وأُنادي وأُصَفِّرُ وأَمامي كَلْبُنا «مُرْجان» يَتَشَمَّمُ الأَرْضَ ويُبَصْبِصُ بِذَنَبِهِ.



وعِنْدَما عُدْتُ إلى البَيْتِ في المَساءِ عُدْتُ وعَلى كَتِفَيَّ أَرْنَبانِ وغَزالٌ كَبيرٌ. ولَمْ يَقُلْ لي أَبي شَيْئًا عَنِ البُنْدُقِيَّةِ وكَيْفَ تَجَرَّأْتُ عَلى أَخْذِها دونَ إذْنِهِ أَوْ عِلْمِهِ. وكُلُّ الظَّنِّ أَنَّهُ نَسِيَ ذٰلِكَ عِنْدَما رَأى الأَرْنَبَيْنِ والغَزالَ.

ولَوْ لَمْ أُوَفَّقْ في الصَّيْدِ، لَضَرَبَني وكَسَرَ على جِلْدي واحِدًا على الأَقَلِّ مِنْ رِزْمَةِ قُضْبانِ التُّوتِ المَوْضوعَةِ فَوْقَ الخِزانَةِ، تُطِلُّ رُؤوسُها مُنْذِرَةً إيّايَ بِالوَيْلِ والثُّبورِ على أَوَّلِ شَيْطَنَةٍ أُقْدِمُ عَلَيْها.





ولَشَدَّ ما كانَتْ خَيْبَتي عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ في الصَّباحِ الباكِرِ ووَجَدْتُ نَفْسي في الفِراشِ. فَنَهَضْتُ بِرِفْقٍ وأَنَا لا أُصَدِّقُ أَنَّ ما حَدَثَ لي كانَ في الحُلْمِ، وأَمْسَكْتُ يَدَ أُخْتي النّائِمَةِ قُبالَتي وشَدَدْتُها:

– قُومي... قُومي نَذْهَبْ إلى الغابَةِ. إنَّ والِدَيَّ ما زالا في المَدينَةِ، وسَأُعَلِّمُكِ إطْلاقَ النّارِ وصَيْدَ الطُّيورِ.

فَفَتَحَتْ أُخْتي عَيْنَيْها وقالَتْ:

– وأَيُّ غابَةٍ؟ الدُّنْيا لَيْلٌ، رُحْ نَمْ.

– هس... اِخْفِضي صَوْتَكِ. أَتُريدينَ أَنْ تَسْمَعَنا جَدَّتي؟

ثُمَّ قُلْتُ لَها:

– سَأَصْطادُ لَكِ عُصْفورًا جَميلًا جِدًّا. أَلا تَذْهَبينَ؟





وَنَهَضَتْ أُخْتي، وحَمَلْنا ثِيابَنا إلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ، فَارْتَدَيْناها. ثُمَّ أَنْزَلْتُ البُنْدُقِيَّةَ مِنَ الحائِطِ فَتَمَنْطَقْتُ بِها، وأَعْطَيْتُ أُخْتي «الجَرَبَنْدِيَّةَ»، ومَشَيْنا بَعْدَ أَنْ أَقْفَلْنا البابَ بِتُؤَدَةٍ ووَثِقْنا أَنَّ جَدَّتَنا تَغُطُّ في نَوْمِها وتَشْخِرُ... ثُمَّ لَحِقَ بِنا مُرْجان يُلَوِّحُ بِذَنَبِهِ فَرِحًا...

وفي مُنْتَصفِ الطَّريقِ وَقَفَتْ أُخْتي فَجْأَةً وأَخَذَتْ تَرْتَعِشُ. ثُمَّ الْتَفَتَتْ إلى الوَراءِ وهي تَقولُ لي مُتَوَسِّلَةً: تَعالَ نَرْجِعْ، تَعالَ... سَيَعْرِفُ أبي بِأَنَّكَ أَخَذْتَ البُنْدُقِيَّةَ، وسَيَضْرِبُنا.





أَمّا أَنا فَلَمْ أَكُنْ أُفَكِّرُ بِشَيْءٍ مِنْ هذا، أَوْ أَنَّني كُنْتُ أُبْعِدُ هٰذِهِ الأَفْكارَ. إنَّ كُلَّ ما كانَ يَشْغَلُني في ذٰلِكَ الوَقْتِ هُوَ رُؤْيَةُ عُصْفورٍ ما لِأُجَرِّبَ إطْلاقَ النّارِ عَلَيْهِ. فَإذا أَبْصَرْتُ خَيالًا مِنَ الأَخْيِلَةِ انْتَفَضْتُ وهَمَمْتُ. وإذا لاحَتْ فَراشَةٌ أَوْ قَفَزَ «قَبّوطٌ» أَوِ اهْتَزَّ غُصْنٌ. جَمَدْتُ حابِسَ الأَنْفاسِ وكُلّي آذانٌ وعُيونٌ.

قُلْتُ لِأُخْتي بِسَوْرَةِ خُيَلاءَ:

– أَتَظُنّينَ أَنّني لَمْ أَزَلْ صَغيرًا. لَقَدْ كَبِرْتُ وأَصْبَحْتُ أُتْقِنُ الرَّمْيَ فَلِماذا لا يَسْمَحُ لي والِدي بِبُنْدُقِيَّتِهِ؟

ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْها مُلاطِفًا:

– سَأُعْطيكِ عُصْفورًا حَيًّا. أَتَعْرِفينَ «أَبو الحِنّ» ذا الذَّنَبِ الأَحْمَرِ؟ هُوَ نَفْسُهُ. سَأُطْلِقُ النّارَ عَلى جَناحٍ مِنْ جَناحَيْهِ، فَإِذا ما انْكَسَرَ، فَلَنْ يَقْوى عَلى الطَّيَرانِ فَيَتَدَحْرَجُ مِنَ الشَّجَرَةِ إِلى الأَرْضِ وهُوَ حَيٌّ فَتَأْخُذينَهُ.





وراحَتْ أُخْتي تَتَخَيَّلُ «أبو الجِنّ» وكَيْفَ سَيَتَدَحْرَجُ مِنَ الشَّجَرَةِ وكَيْفَ سَتَرْكُضُ قَبْلَ مُرْجان لِتَلْقُطَهُ. وكَيْفَ سَتَتَفَرَّجُ عَلَيْهِ، عَلى مِنْقادِهِ، عَلى عَيْنَيْهِ، وجَناحَيْهِ، وخُصوصًا عَلى ذَنَبِهِ الأَحْمَرِ الدّائِمِ الحَرَكَةِ.

وإذا بِها تَتَشَجَّعُ وتَطْفو عَلى مُحَيّاها البَشائِرُ. وإذا بِها تَتْبَعُني عَلى رُؤوسِ أصابِعِها مُفَتِّشَةً مَعي عَنْ «أَبو الجِنّ».





وقَطَعْنا مَسافَةً طَويلَةً في الغابَةِ، دونَ أَنْ أُوَفَّقَ بِرَمْيِ عُصْفورٍ واحِدٍ.
حَتّى وَصَلْنا إلى «تِينَة الشَّيْخ» وهي تِينَةٌ مَشْهورَةٌ في القَرْيَةِ بِتِينِها الأَبْيَضِ اللَّذيذِ.

فَقَعَدْنا تَحْتَها نَسْتَريحُ ونُزيلُ العُلَّيْقَ عَنْ ثِيابِنا. وبَعْدَ هُنَيْهَةِ صَمْتٍ قُلْتُ: لا بُدَّ لي أَنْ أُخْبِرَ أُخْتي بِالحُلْمِ الّذي حَلَمْتُهُ.





وحَكَيْتُهُ لَها، فَأَخَذَها العَجَبُ واسْتَوْلَى عَلَيْها الفَرَحُ.

أَلا يُوجَدُ هُنا أَرانِبُ وغِزْلانٌ؟

– ولٰكِنْ هٰذا في الحُلْمِ يا أُخْتي.

– أَوَلَيْسَتْ هٰذِهِ غابَةً كَتِلْكَ؟

ثُمَّ سَكَتَتْ هُنَيْهَةً وقالَتْ:

لَسْتُ أُريدُ «أبو الحِنّ»، أُريدُ غَزالًا أَوْ أَرْنَبًا أَبْيَضَ.





وبَيْنَما نَحْنُ كَذلِكَ إذا بِعُصْفورٍ يَأْتي مِنْ بَعيدٍ في الجَوِّ ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَحُطُّ عَلى غُصْنٍ مِنْ أَغْصانِ التّينَةِ. ولَسْتُ أَدْري كَيْفَ انْتَفَضْتُ واقِفًا وبِأَسْرَعَ مِنَ البَرْقِ أَطْلَقْتُ البُنْدُقِيَّةَ.

ولَمْ أُصَدِّقْ عَيْنَي عِنْدَما رَأَيْتُهُ يَتَدَحْرَجُ مِنْ غُصْنٍ إلى غُصْنٍ ويَقَعُ على الأَرْضِ أَمامي. وتَأْبَى الأَقْدارُ إلّا أَنْ يَكونَ «أبو الجِنّ»، ثُمَّ تَأْبَى إلّا أَنْ تُكْمِلَ مُفاجَأَتَها فَظَلَّ العُصْفورُ حَيًّا.





وعِنْدَما تَناوَلْتُ ذٰلِكَ الشَّيْءَ الصَّغيرَ النَّحيلَ الدّافِئَ، وانْتَفَضَ بَيْنَ يَدَيَّ، أَيْقَنْتُ أَنَّ عُمْرَهُ قَصيرٌ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الخُرْدُقَةَ لَمْ تُصِبْ مِنْهُ إلّا مِنْقادَهُ.

أَبو الجِنّ. أَبو الجِنّ. هاي هاي. هٰذا لي. هٰذا لي أَرِني... وحَياتِكَ... أُمْسِكُهُ أَنا بِيَدي.

– أَما قُلْتُ لَكِ إِنَّني صَيّادٌ عَظيمٌ؟ خُذي. أَمْسِكيهِ جَيِّدًا. هٰذا أَبو الذَّنَبِ الأَحْمَرِ. إِيّاكِ أَنْ تَشُدّي عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَموتُ حالًا.

– حَرامٌ... حَرامٌ... إِنَّهُ يَبْكي لِماذا كَسَرْتَ مِنْقادَهُ؟ كَيْفَ يَأْكُلُ؟ إِنَّهُ جائِعٌ.





ثُمَّ انْثَنَتْ تُخاطِبُهُ:

– أَنْتَ جائِعٌ يا «نونو»، سَأُطْعِمُكَ تِينًا. أَتَأْكُلُ مِنْ يَدي؟ أَلا تُحِبُّني؟ عِنْدما نَصِلُ إلى البَيْتِ سَأُعْطيكَ أَشْياءَ كَثيرَةً... كُلَّ اللُّعَبِ الّتي عِنْدي، وسَتَنامُ مَعي، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟

فَضَحِكْتُ وقُلْتُ لها:

– ماذا قالَ لَكِ؟ أَيَأْكُلُ؟

وفي الحالِ تَسَلَّقْتُ شَجَرَةَ التِّينِ وأَخَذْتُ أَقْطِفُ، وأَرْمي لِأُخْتي الحَبَّةَ تِلْوَ الحَبَّةِ. ثُمَّ قُلْتُ:

– أَيْنَ هُوَ النّاطورُ. أَيَجْرُؤُ على طَرْدي مِنْ هُنا؟ أَنا حُرٌّ. أَنا صَيّادٌ أَذْهَبُ إلى كُلِّ مَكانٍ.

– وإذا سَلَبَني العُصْفورَ أَتَرْميهِ بِالرَّصاصِ؟

– هه... هه... إذا رَآني على الشَّجَرَةِ سَيُلَوِّحُ لي بِعَصاهُ ولكِنّي سَأَعْرِفُ...

– سَيَضْرِبُنا بِعَصاهُ؟

– هَلْ يَجْرُؤُ! أَشْكوهُ لِأَبي.





وإذا بي أَسْمَعُ فَجْأَةً أَزيزَ صَفيرٍ، ثُمَّ صَوْتًا قَوِيًّا، لَقَدْ سَمِعْتُهُ مَرَّتَيْنِ. المَرَّةَ الأُولى مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ والمَرَّةَ الثّانِيَةَ مِنْ جِهَةِ الغَرْبِ واخْتَلَطَتْ أَصْداؤُهُما في الوادي اخْتِلاطًا رَهيبًا. فَاصْطَكَّتْ رُكْبَتايَ وكادَتْ يَدايَ تَخونانِي. وصَرَخَتْ أُخْتي:

— هٰذا النّاطورُ. إِنْزِلْ. عَجِّلْ. أَيْنَ أُخْفي التّينات؟ التّيناتِ.

وارْتَبَكْتُ ولَمْ أَعُدْ أَقْوَى عَلى النُّزولِ لَقَدْ كُنْتُ أَرْتَعِشُ مِنْ قِمَّةِ رَأْسي إلى أَخْمَصِ قَدَمَيَّ.





وحاوَلْتُ أَنْ أَرْمِيَ بِنَفْسي إلى الأَرْضِ لٰكِنّي لَمْ أَجْرُؤْ. ولَمْ أَكَدْ أَصِلُ إلى كَعْبِ الشَّجَرَةِ حَتّى كانَ النّاطورُ قَدْ سَبَقَني وأَمْسَكَ بِذِراعِ أُخْتي صائِحًا:

ماذا تَفْعَلانِ ها هُنا؟ أَتَجْهَلانِ أَنَّ لِهٰذِهِ الأَرْضِ أَصْحابًا؟

ولَشَدَّ ما كانَ غَضَبُهُ إذْ رَأى كُومَةً مِنَ التِّينِ مُبَعْثَرَةً بيْنَ التُّرابِ. فَعَقَدَ حاجِبَيْهِ ورَفَعَ عَصاهُ:

– هٰذا مالٌ. هٰذا ذَهَبٌ. هٰذا ثَمَرَةُ أَتْعابٍ تَرْمونَهُ وتَدوسونَهُ؟

وصَرَخَتْ أُخْتي إذْ رَأَتْهُ يُلَوِّحُ بِعَصاهُ ويَهْجُمُ عَلَيَّ:

– وحَياتِكَ لَنْ نُعيدَها. لا تَضْرِبْهُ.. وحَياتِكَ.

– هس. إِخْرَسي.





ثُمَّ كَتَّفَ يَدَيَّ وراحَ يَضْرِبُني عَلى قَفايَ الضَّرْبَةِ تِلْوَ الضَّرْبَةِ وأَنا أَبْكي. والْتَفَتَ إلى أُخْتي قائِلاً:

– أَنْتِ بِنْتٌ. لَنْ أَضْرِبَكِ. ولٰكِنْ قِصاصُكِ سَتَنالينَهُ الآنَ مِنْ والِديْكِ.

ولَسْتُ أَذْكُرُ كَيْفَ عُدْتُ إلى البَيْتِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ وماذا قُلْتُ لِجَدَّتي، وكُلُ ما أَذْكُرُهُ، أَنَّني عُدْتُ مُحْمَرَّ العَيْنَيْنِ فاقِدًا وَعْيي، إذْ إنَّ النّاطورَ لَمْ يَكْتَفِ بِضَرْبي بَلْ أَخَذَ مِنّي البُنْدُقِيَّةَ حُجَّةً عَلَيَّ يُقَدِّمُها إلى والِدي. ولٰكِنَّ الشَّيْءَ الوَحيدَ الّذي لَمْ أَنْسَهُ ولَنْ أَنْساهُ ما حَيِيْتُ، بَلِ الشَّيْءُ الذي ما زالَ يَهُزُّ كِياني كُلَّما خَطَرَتْ لي تِلْكَ الذِّكْرى، هُوَ صَوْتُ أَبي يُرْعِدُ ويَمْلأُ البَيْتَ:

– تِيناتُ النّاسِ... تِيناتُ النّاسِ... ما لَكَ ولِتيناتِ النّاسِ.. أَلَيْسَ عِنْدَنا تِينٌ؟





أَمّا «أَبو الجِنّ» فَوَضَعَتْهُ أُخْتي في قَفَصٍ واعْتَنَتْ بِهِ. وعِنْدَما شُفِيَ مِنْقادُهُ تَمَكَّنَ والِدي مِنْ إقْناعِها بِأَنَّ «أَبو الجِنّ» لا يَعيشُ سَجينًا في القَفَصِ وعَلَيْها أَنْ تُطْلِقَهُ كَيْ يَعيشَ كَالسّابِقِ طَليقًا حُرًّا.

كتب الفراشة - حكايات شعبيّة

مكتبة لبنان ناشِرُون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت، لبنان

الطبعة الأولى، ١٩٩٦
طُبع في لبنان
رقم الكتاب 01C193103



كتب الفراشة

حكايات شعبيّة ٣٠ أبـو الحِـن ّ

هٰذه الحِكاية هي ذِكْرى مِن ذِكْرَيات الطُّفولة وحُلم جَميل أراد الكاتِب أن يُحقِّقه.

في ذٰلك اليَوْم دَعا الفَتى أُخْتَه - في غِياب الوالِد - إلى رِحْلة صَيْد. وقَد اصْطاد عُصْفورًا جَميلًا لِلغاية هو «أَبو الحِنّ» المَعْروف بِذَنَبه الأَحْمر.

لكِنّ نِهاية الرِّحْلة كانَت غَيْر مُتوقَّعة بِسَبب خِلاف نَشَب مَع ناطور القَرْية!





مكتبة لبنان ناشرون